محمد

صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشرى

استدراك

أرجو أن تقرأ آخر كلمة فى مقال العدد الماضى هكذا . « أما الأنبياء عليهم السلام ، فقد طهرهم الله تعالى ، وكف كل رجس عنهم من يوم سواهم إلى يوم قبض من قبض منهم ».

***

هذا إلى أن كل رسول منهم إنما جاء بشريعة أو دعا إلى شريعة تدخل فيها عبادة الله وإقامة حدوده فيما يدور بين الناس من المعاملات ، وما ينبغى لهم من جلائل الأخلاق وكرائم الآداب . ولم يسمع قط أن نبياً أحل نفسه من شىء من هذا ، أو ترخص فيه سواء فيما بينه وبين نفسه ، أو فيما بينه وبين الناس . بل لقد أخذوا أنفسهم بغاياتها ، وبالغوا فى هذا إلى الحد الذى يعتبر إسرافا بالإضافة إلى غيرهم . بل لقد اختصهم الله بألوان من التكاليف أثقل منها سائر خلقه لما فيها من المشقة وشدة العسر عليهم . وسيرد عليك شىء من هذا فى معرض أساليب النبى وخلاله صلى الله عليه وسلم . وبهذا يمتاز الأنبياء بما لا يتسق فى العادة لغيرهم من مطاوعة الفعل للاعتقاد ، ومطابقة العلم للعمل . وذلك فى أقصى الحدود وأوفى الغايات .

ولقد تعلم أن كثيراً من الدعاة من يكتمون عن الجمهرة بعض ما يعرفون أن فيه الحق والخير والنفع ، خشية تأليب الدهماء عليهم ، وإرسال التهم إليهم . وقد يقع هذا فى دعوة تتصل بالأخلاق ، أو بالسياسة ، أو بالأدب ، أو بالاقتصاد ، أو بأى شأن آخر من شئون الاجتماع .

أما الرسل عليهم السلام فأنت خبير بأنهم مبعوثون بهدم أديان أممهم ، وإزعاجهم عن معتقداتهم ، وتزييف أفهامهم ، وتسفيه أحلامهم ، ودعوتهم إلى تغيير ما رسخ من أخلاقهم ، وما استمكن من طباعهم ، فما قصروا فى شىء من هذا ولا فتروا من أول يوم دونه . إذ هم أفذاذ لا حول لهم ، ولا سلطان يعصمهم ، ولا مال يستدرج إليهم ويستألف النادين عنهم . وهم

إنما يبعثون فى أقوام شداد غلاظ ، لقد تحجرت قلوبهم بطول ما تمادوا فى البغى ، واسترسلوا فى الضلالة والغى . لهذا كان من شرائط الرسالة التبليغ والأمانة . على هذا يتم لرسل الله مطابقة العلم للعمل ، ومظاهرة الدعوة لهما جميعاً ، وذلك إلى غاية الغاية ، وإلى أقصى حدود النهاية.

بعثة النبى صلى الله عليه وسلم

تعلم أن بعثة كل من سلف من الرسل إنما كانت مقصورة على قوم بأعيانهم ، فهى محدودة الزمان ، محصورة المكان . وهى إذا تظاهرت كلها على عبادة الله وحده والإيمان برسوله ، فلقد اختلفت كيفياتها فيما يلى ذلك ؛ فمنها ماجاء بشريعة تبين للناس طرق عباداتهم وصدراً مما يتعلق بطروق معاملاتهم وسائر أسبابهم . ومنها ماجاء للدعوة إلى شرع من خلا من الرسل وزجر الناس عما تخلقوا به من أخلاق قبيحة ، وما ألفوا من عادات كريهة .

أما بعثة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وشرّف وكرّم ، وبجّل وعظّم ، فلا يحدها زمان ، ولا يحصرها مكان ، ولا يجوزها سبب ، ولا يتد عنها غاية . فلقد أرسل للناس كافة فى جميع أقطار الأرض ، يخاطبهم برسالته جيلاً بعد جيل ، ويدعوهم إلى شريعته قبيلاً إثر قبيل . قال تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » ، وقال جل مجده : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وقال صلى الله عليه وسلم : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وذلك بأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . قال تعالى : « وخاتم النبيين » ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا نبى بعدى » ؛ ولهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون رسالته جامعة ، وأن تكون شريعته موفية على الغاية من الكمال ، سواء فى أحكام العبادات والمعاملات ، أو فى الأخلاق والآداب ، وغير ذلك مما يتصل بالأسباب الدائرة بين الناس ، وعلى هذا استوت شريعته صلى الله عليه وسلم ، فى أصول أربعة : الكتاب . قال تعالى : « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ؛ والمعنى : من أمهات أصول الدين . والسنة ، وهى قول النبى وفعله . والإجماع إجماع صحابته ، وهم أدنى الخلق إليه وأعلمهم بمراميه وأخبرهم بمداخل شريعته . ثم القياس ، وهو إطلاق حكم ماورد فيه نص على مالم يرد فيه لاشتراكهما فى علة ظاهرة .

وإذ علمت أن الرسول ينبغى ، بالبداهة ، أن يكون مثلاً أعلى لكل مايبعث به إلى الناس ، فضلاً عن أن فعله حتى إشارته تعتبر أصلاً من أصول الدين ، قدرت مبلغ ماتحلى به النبى صلى الله عليه وسلم من جليل الأخلاق ، وما تجلى فيه من كريم السجايا وشريف الخلال ، ولا يذهب عنك فى هذا المقام قوله صلى الله عليه : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وناهيك بمن يزكيه ربه فى هذا الباب بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » : وناهيك بمن يكون مربيه ومؤدبه هو الله سبحانه وتعالى . قال صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وبعد فنحن إنما عقدنا هذا الباب للكلام فى صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا كنا قد أطلنا فى التمهيد بين يدى هذا الغرض، فإن تلك المقدمات لاتخلو من أثر بعيد أو قريب فيما نحن بسبيله .

هذا ، وينبغى أن تعلم أن هذا المقام لايتسع ، بالضرورة ، لعرض كل شمائله ، وتجلية جميع فضائله ، واستقصاء جملة الشواهد عليها ، والآثار المثبتة لها ، على أن هذا جميعه مبسوط فى كتب السير ، فليطلبه فيها من يريد تقصيه . وإنما نجتزىء هنا بإيراد صدر من أمهات الفضائل وعرض شواهدها ، مستمدين من كتاب الله تعالى ، ومما أثر عن أوثق الرواة وأصدقهم من أهله الكرام ، وصحبه العظام ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

شمائل النبى صلى الله عليه وسلم

إن أصول الفضائل ، خلقية كانت أو مكتسبة، تدور فى : (١) وفور العقل وذكاء الجنان ـ (٢) فصاحة اللسان وبراعة المنطق ـ (٣) الشجاعة والنجدة ـ (٤) الجود والكرم ـ (٥) العدل والأمانة والعفة ـ (٦) الحلم والصبر والعفو ـ (٧) الحياء والإغضاء ـ (٨) الأدب والتواضع وحسن المعاشرة ـ (٩) الشفقة والرحمة ـ (١٠) الوفاء وصدق العهد وصلة الرحم ـ (١١) الوقار ـ (١٢) الزهد .

وفور العقل وذكاء الجنان :

أما عقله ،صلى الله عليه وسلم ، وذكاء لبه ، وصدق رأيه ، وعظيم حكمته ؛ فلقد كان من ذلك كله فى موضع لايلحقه غيره، ولا يتعلق به سواه . قال تعالى: « وأنزلنا عليك الكتاب والحكمة ». وحسبه، بعد هذا، ماتظاهرات عليه الكافة من وفور عقله ، وذكاء جنانه، وقوة حواسه ، وصدق رأيه ، وصحة تدبيره ، وحسن قيامه على سياسة الأنام ، وتقرير الشرائع ، وتأصيل أصول الأخلاق ، وتقعيد قواعد الآداب ، إلى مافى كلامه،صلى الله عليه وسلم ،من المعانى البارعة ، والحكم الرائعة ، حتى لتتخذ كلمته فى أى سبب من الأسباب أصلاً يبنى العلماء علومهم عليه ، ويردون قضاياها إليه ، وإلى علمه بسير الأولين ، وفقهه فى شرائع الرسل الخالين ، وإحاطته بأمور الدنيا،وإصابته علوم الحياة ، كل ذلك دون سابق تعليم ولا مدارسة ولا تدريب ولا شىء مما يفتق العقل ويفسح فى الملكة ، ويفرس العلم ، ويقوم الفهم ؛ بل لقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، ولا يعرف أنه جلس إلى معلم، أو شق له كتاب ، فإذا أردت أن تتقرى سبب هذا وتعرف علته ، فاطلبه فى قول الله تعالى: « وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فصاحة اللسان وبراعة المنطق :

أما فصاحة لفظه وبراعة منطقه ، فلقد تعلم أن العرب كانوا أصحاب فصاحة ، وأهل نطاقة وذرابة ، وقوة بديهة، وبراعة ارتجال . يتبارون فى هذا ويتكاثرون به، ويعقدون الأسواق الجامعة له طلباً للسبق ورغبة فى التبريز ، حتى إن المعجزة الجلى التى أمد الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم وأيد بهادعوته على وجه الزمان إنما جاءت من هذه الناحية وتوجهت على هذا الوجه، وهى القرآن الكريم الذى عاجز القوم فى أساليب فصاحاتهم ، وتحداهم فى منازع بلاغاتهم «فأتوا بعشر سور مثله مفتريات». «فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين» ،فنكلوا وانخذلوا، وعى بذلك خطباؤهم ، وخرست ألسنة مقاويلهم ، حتى لقد آثروا أن يعارضوا السيف دون معارضته ، وحتى لم يبالوا فى هذا إعلان العجز والكشف عن السوأة « وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

ولا يذهب عن فطنتك أن رسولاً يبعث وحجته الكبرى على صدق دعوته ومعجزته العظمى لتأييد رسالته هى الفصاحة ، لا ينبغى أن يلحقه الحصر ، أو تحتبس لسانه اللكنة ، فضلاً عن أن هذا إذا كان دلالة نقص معيب عند جميع الأمم فهو عند العرب أعيب ، وهو عندهم أزرى وأقبح . وعلى هذا تعلم أن الرسول العربى ينبغى أن يكون من فصاحة اللسان وبراعة المنطق بالمكان الرفيع ، بل ينبغى أن يكون أفصح الناس جميعاً ، ولقد كان كذلك صلى الله عليه وسلم.

وهنا يجب علينا أن ننبه إلى أن كون النبى صلى الله عليه وسلم من فصاحة اللسان وبلاغة المنطق بهذا الموضع لا يقدح ولا يمكن أن يقدح فى تنزيل القرآن الكريم . فإن بلاغته مهما علت على بلاغة قومه فهى منها، وهى موصولة بها ، وهى جارية على أسلوبها ، وكل ما يبدو للناقد البصير من الفروق فى هذا الباب مثل ما يبدو له بين شاعر وشاعر ، أو بين كاتب وكاتب، أما بلاغة القرآن فشىء آخر . وحسبك أن تعرف أنه من كلام الله لا من كلام البشر ، كلام يشعر أبلغ البلغاء أنه ما يفوق طاقة الإنسان وتعجز عن محاكاته الطبيعة البشرية ، لهذا لم يجرءوا على هذا ولم يتكلفوه ، على شدة عنادهم وفرط إلحاحهم ، ومن تكلف ذلك منهم فقد أسف وسقط ، وأتى بالغث البارد المضحك من الكلام .

ونعود بعد هذا إلى فصاحته صلى الله عليه وسلم ، ولقد قال له أصحابه : ما رأينا الذى هو أفصح منك ! فقال : « وما يمنعنى ؟ وإنما أنزل القرآن بلسانى : لسان عربى مبين » ، وقال مرة أخرى : « بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد» . قال بعض العلماء فى توجيه ذلك: لقد جمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها .

وقالت أم معبد فى وصفها له: حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن.

ومن جوامع كلمه، ومأثور حكمه: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. المسلمون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. الناس كأسنان المشط، والمرء مع من أحب، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له. الناس معادن. ماهلك امرؤ عرف قدره. والمستشار مؤتمن، وهو بالخيار مالم يتكلم. ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم. وإن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. اتق الله حيث كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن. خير الأمور أوساطها. أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. الظلم ظلمات يوم القيامة. حمى الوطيس. مات حتف أنفه. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. السعيد من وعظ بغيره.

الشجاعة والنجدة:

كان صلى الله عليه وسلم من الشجاعة والنجدة بالمكان الذى لا يلحق، حتى لقد قالوا: إنه مامن شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه صلى الله عليه وسلم. سأل رجل البراء بن عازب رضى الله عنه: أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لكن رسول الله صلى الله عليه لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. قيل: فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه. وروى مسلم عن العباس رضى الله عنه، قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار. وعن على رضى الله عنه: إنا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه: كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس: لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً قد سبقهم إلى الصوت. واستبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقه، وهو يقول: لن تراعوا. وعن عمران بن حصين رضى الله عنه: مالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب. ولما رآه أبى بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا. وقد كان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم — حين افتدى يوم

بدر — : عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رآه يوم أحد شد أبي على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا ! أي خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً ، وقيل بل كسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع إلى قريش يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون لا بأس بك . فقال . لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم ! أليس قد قال أنا أقتلك ؟ والله لو بصق علي لقتلني . ومات بسرف في قفول القوم إلى مكة .

الجود والكرم :

لقد بلغ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من هذا ما لم يبلغ ، ونال منه ما لا ينال . عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان في شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن جابر رضي الله عنه : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال لا . وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى بلده وقال : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة . وأعطى غير واحد مائة من الإبل . وأعطى صفوان مائة ، ثم مائة ، ثم مائة . ولقد رد على هوازن سباياها ، وكانوا ستة آلاف . وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها . وجاءه رجل فسأله ، فقال . ما عندي شيء ؛ ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه . وعن معود بن عفراء رضي الله عنه . أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بقناع من رطب (يريد طبقاً) وأجر من زعب (يريد قناء) ، فأعطاني ملء كفه حلياً وذهباً . وعن أنس رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد .

وأخبار بره وجوده وكرمه مما لا يتسع لاستقصائها مثل هذا المقام . ومهما يكن من شيء فإن مما يزيد في علو هذه الشيم ، ويضاعف من قدر هذا البر والكرم : أن يقع ممن يعيش عيش أقل الناس مالاً ، وأرق المساكين حالاً . وناهيك بمن لم يشبع يومين متتاليين حتى من خبز الشعير . وسيجيء هذا في الكلام على قناعته وزهده صلى الله عليه وسلم . ؟

عبد العزيز البشري